

المنهج الديناميكي في البحث والتحليل

الباب الرابع (21 صفحة) - الفصل التاسع

من كتاب

النهضة والذكاء الجماعي

(2011 - رقم: 4)

عمر "محمد فؤاد" أبو الرّب

المراجع في هذا الفصل موجودة في صفحة المراجع في الكتاب الأصل

جميع الحقوق محفوظة

◀ المنهج الديناميكي في البحث والتحليل:

المنهج الديناميكي هو ترجمة غير حرفية لـ (System Thinking) وهو جزء من العلوم الإدارية المتعلقة بنظرية الأنظمة (System Theory). وهو علم في غاية الأهمية في الأدبيات الإدارية .

وأول ما بدأت هذه النظرية بالظهور كان في علم الفيزياء في موضوع ديناميكية الحرارة (Thermodynamics) في القرن التاسع عشر. فنظرية الأنظمة جاءت لتشرح انتشار الحرارة في السوائل وللعلاقة بين الحرارة والضغط والحجم. غير أن العلماء بتخصصاتهم قد انتبهوا أن نظرية الأنظمة لا تتعلق فقط بعلم الحرارة وإنما يمكن تطبيقها على أي شيء يمكن وصفه بأنه نظام، بما فيها المؤسسات والمجتمعات والدول والأمم. وإذا كنت ممن درس الهندسة الميكانيكية أو الكهربائية فستلاحظ أن أنظمة التحكم التي درستها تشبه كثيراً نظرية الأنظمة في العلوم الإدارية.

سنبداً بشرح الأنظمة بشكل عام ثم الدخول إلى نظرية الأنظمة في العلوم الإدارية .

النظام (System) هو أي شيء مادي (كالمكنسة الكهربائية) أو معنوي (كمجلس الإدارة) والتي لها حدود واضحة وتتفاعل مع محيطها (تعريف مختصر).

فالمكنسة الكهربائية هو شيء له حدود واضحة وكذلك فإن هذه المكنسة تستخدم للتنظيف، وهي بهذا تتفاعل مع محيطها. ومجلس الإدارة هو شيء له حدود ويقوم باتخاذ القرارات الرئيسية للشركة، وبالتالي فهو يتفاعل مع المحيط حوله.

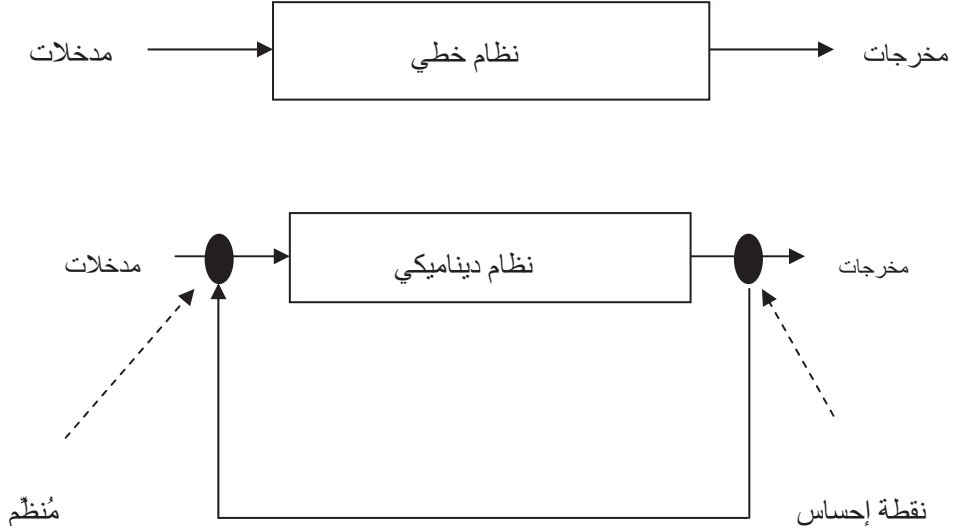
وهناك نوعان من الأنظمة: الأنظمة الخطية والأنظمة الديناميكية.

الأنظمة الخطية هي الأنظمة التي لا يوجد فيها تحكم داخلي لتنظيم المدخلات بالنسبة للمخرجات. مثال على ذلك هو خط الإنتاج في المصنع. فإذا كان المصنع يقوم بتحويل صفائح الحديد إلى براميل، ولم يكن هناك أية أنظمة تتحقق من جودة هذه البراميل، فإن الذي يحدث هو أن خط الإنتاج سيستمر في التصنيع بغض النظر إذا كان إنتاجه صحيح أو عبث.

الأنظمة الديناميكية هي الأنظمة التي يوجد فيها نظام تحكم داخلي يسمح بتنظيم المدخلات بالنسبة للمخرجات. مثال ذلك هو نفس خط الإنتاج. فإذا كان هناك أشخاص في نهاية كل مرحلة من مراحل الإنتاج يتحققون من الجودة، وحدث هناك خطأ في جودة الإنتاج فإنهم يقومون بوقف خط الإنتاج والتحقق من سبب الخطأ وبعدها يعاد فتح خط الإنتاج من جديد.

المؤسسات والمجتمعات وكل ما يتعلق بالإنسان يقع ضمن الأنظمة الديناميكية.

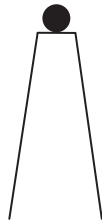
بالطبع فإن الأنظمة الخطية أسرع بكثير من الأنظمة الديناميكية، ولكن الأنظمة الديناميكية أكثر أماناً من الأنظمة الخطية. والذكاء أن تجد نظاماً هجيناً بين الاثنين يسمح بأخذ فوائد النظامين دون سيئاتهما. وهذا هو أحد التحديات التي تواجه العلوم الإدارية المتعلقة بإدارة الموارد البشرية والجودة الكاملة. الشكلان التاليان يبينان الفرق بين الأنظمة الخطية والأنظمة الديناميكية.



تحتوى الأنظمة على الظواهر والقوانين التالية: حالة الاتزان، حالة الاستقرار، التراجع، قانون التأخير، قانون التغيير، دائرة التعاضم، دائرة الانهيار، قوانين التعاضم، حالة التوازن الديناميكي، قانون التشابك، نقاط الحث، والقفز فوق عتبات التوازن.

■ حالة الاتزان:

وهي الحالة التي تكون القوى المؤثرة على النظام متوازنة. أفضل مثال على ذلك هو الشكل التالي:



ضع كوباً مقلوباً وضع فوقه كرة صغيرة.

إن سكون الكرة هو دليل اتزانها. مثال آخر: رجل يكون في وظيفة

مستقرة، ولا تتغير حياته مع تغير الأيام، فإنه يكون في حالة اتزان.

■ حالة الاستقرار:

وهي قدرة النظام على الرجوع إلى حالة الاتزان إذا جاءت قوة وأثرت عليه.

في المثال السابق فإن النظام ليس في حالة استقرار حيث إن أي قوة مؤثرة ستدفع الكرة خارج النظام. ولكن في المثال التالي فإن النظام هو في حالة استقرار، حيث إن أي قوة مؤثرة (معقولة) قد تخرج الكرة من حالة الاتزان ولكن النظام قادر على إعادة الاتزان لها لاحقاً. وبالطبع إذا كانت القوة أكبر من تماسك النظام فإن هذا النظام سيفقد حالة الاستقرار وينهار. أي إذا كانت القوة المؤثرة أكبر من اللازم في هذا المثال فإن الكرة ستخرج تماماً من الكوب.

مثال آخر: إذا جاء مدير الشركة يوماً وبدأ بالصياح والشتيمة لموظفيه. فإذا كانت الشركة قوية، وكان للموظفين الحاجة أو الرغبة فيها، فإن الأمر قد يؤدي إلى اضطراب في الشركة ولكن لا يكون الأمر خطيراً، أما إذا كانت الشركة ضعيفة وكان رغبة الموظفين للعمل في الشركة ضعيف، فإن تصرف المدير قد يخرج الشركة تماماً من حالة الاستقرار.

■ التآرجح:

التآرجح هو ظاهرة تحدث للنظام نتيجة لقوى التغيير وقوى الاستقرار. فإذا جاءت قوة وأثرت في النظام فإن التآرجح هو نتيجة لتفاعل هذه القوة المؤثرة مع قوة النظام.

مثال ذلك البندول، فأنت عندما تضرب كرة البندول فإن البندول سيتأرجح حتى يصل في النهاية إلى حالة الاستقرار.

مثال آخر، فإن قيام المؤسسة بتغيير أنظمتها، فإن الذي سيحدث في الشركة

هو التآرجح بين القوى المؤيدة للنظام الجديد والقوى المعارضة له. وتكون الشركة في حالة شد وجذب حتى تصل الشركة إلى حالة الاستقرار. وبالطبع فإذا كان التغيير أقوى من تماسك الشركة فإن الشركة ستأرجح إلى الانهيار. والمثال الكلاسيكي الموجود في الأدبيات الإدارية هو إذا كنت تستحم وكان صنبور المياه الساخنة بعيد عن سخان الماء. فأنت عندما تفتح الصنبور فإن الماء الساخن لا يأتي مباشرة، فتقوم بشكل لا إرادي بزيادة الصنبور الساخن. والذي يحدث عندها أن الماء الساخن يأتي ثم بعدها بقليل يأتي ماء حار جداً، فتقوم بإنقاص الصنبور بسرعة، فيبرد الماء. ثم تقوم بالزيادة والنقصان حتى تصل إلى السخونة المطلوبة. وما حدث هنا هو التآرجح بين البارد والحار حتى استقر النظام.

ودراسة التآرجح أمر مهم في إدارة التغيير، إذ إن أي تغيير يحدث للنظام سينتج عنه نوعاً من التآرجح. فإذا كان متوقعاً حدوث تآرجح كبير في النظام، فلا بد من تصميم نوع من مخدات الامتصاص للإحاطة بالتآرجح. مثال ذلك: إذا قررت الدولة فجأة إعطاء النساء حق الخلع. الذي سيحدث هو حالة تآرجح كبيرة بسبب وجود الكثير من النساء من يريد فجأة خلع أزواجهن، وفي المقابل فهناك الكثير من الرجال من سيغضب لخروج السيطرة من يده. وللإحاطة بآثار التآرجح فربما في السنة الأولى تقوم الدولة بإقرار الخلع بعد شهر واحد من طلبه، ويكون في هذا الشهر محاولات الإصلاح بين الزوجين. ما سبق هو نوع من مخدات الامتصاص لمحاولة الحد من تأثير قانون جاء بشكل مفاجئ.

■ قانون التأخير:

وهو أنه إذا قامت قوة بالتأثير في النظام، فإن ظهور هذا التأثير سيحتاج إلى

الوقت. أي أن هناك تأخير بين التأثير والنتيجة.

ففي المثال السابق، فأنت عندما تفتح صنبور المياه الساخنة، فقد قمت بالتأثير في النظام، ولكنك لم تشعر بنتيجة التأثير إلا بعد وقت. طبعاً هذا القانون واضح وبديهي ولا يمكن أن يتجادل عليه أحد، ولكن الذي حدث أن كثير من الناس من ينسى هذه البديهة عندما يتعاملون مع الأنظمة، فكان أن وضع علماء الأنظمة هذا القانون.

لنأخذ المثال السابق، فإذا كان الرجل عالماً بقانون التأخير فإنه سيقوم بفتح أو غلق الصنبور بشكل ضئيل ثم يصبر حتى تظهر النتيجة ثم يقرر ما إذا كان يريد الزيادة أو النقصان، وهكذا حتى يأتي إلى الحالة النهائية التي يريدتها. وفي هذه الحالة فإن التأرجح يكون في أضيق نطاق ممكن.

وبالطبع فإن الرجل قد استغرق وقتاً طويلاً للوصول إلى حالة الاستقرار النهائي.

وهذه هي العقدة في الأنظمة الديناميكية: فالوصول بسرعة إلى حالة الاستقرار النهائية يتطلب حالة من التأرجح في حين أن عدم التآرجح يحتاج إلى البطء. وفي كثير من الحالات فإن نظام التحكم المتبنى في الدوائر الالكترونية يقبل بقليل من التآرجح كي يكون النظام سريعاً.

■ قانون التغيير:

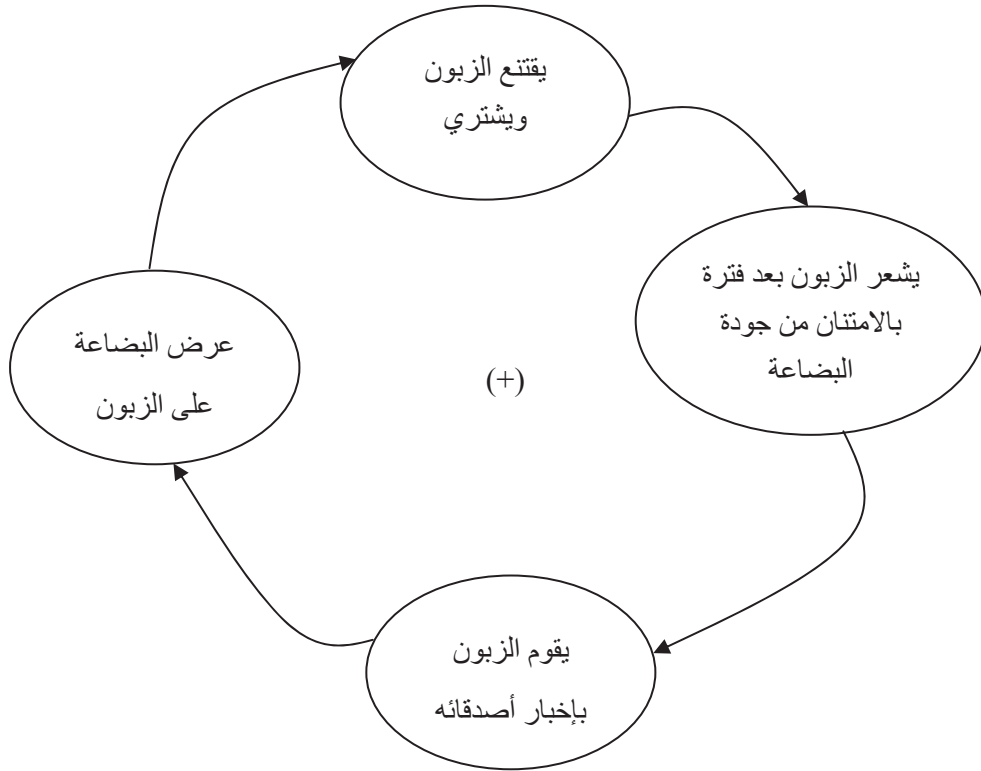
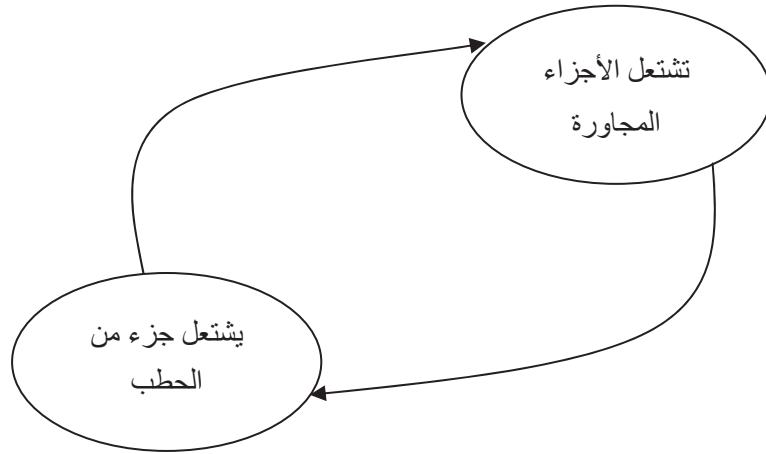
ويقول هذا القانون إنه إذا جاءت قوة تؤثر في النظام، فإن النظام سيحاول استطاعته مقاومة التغيير وإرجاع النظام إلى حالة اتزانه الأولى. فإذا كانت قوة التغيير أكبر من مقاومة النظام فسيستقر في حالة اتزان أخرى. أما إذا كانت قوة التغيير أكبر من تماسك النظام، فإن النظام سينهار.

مثال ذلك: إذا شعرت الشركة بضيق الموارد المالية فقررت تغيير نظام المكافآت في الشركة، فإن هذه الخطوة ستجابه بمقاومة من الموظفين. فإذا كانت قوة مقاومة الموظفين أكبر من قوة التغيير فإن الموظفين في النهاية سيجبرون الإدارة على التراجع. أما إذا كانت قوة التغيير تماثل قوة المقاومة فإن الذي سيحدث في النهاية هو مفاوضات الإدارة مع الموظفين وتكون الأمور بين شد وجذب حتى يصل الجميع إلى اتفاق. أما إذا كانت قوة التغيير أقوى بكثير من قوة المقاومة فإن الموظفين سيستسلمون على مضض لرغبة الإدارة. أما إذا كانت قوة التغيير أكبر من تماسك الشركة فإن الذي سيحدث هو استقالات بالجملة من الشركة مما قد يسبب انهيارها.

■ دائرة التعاضم:

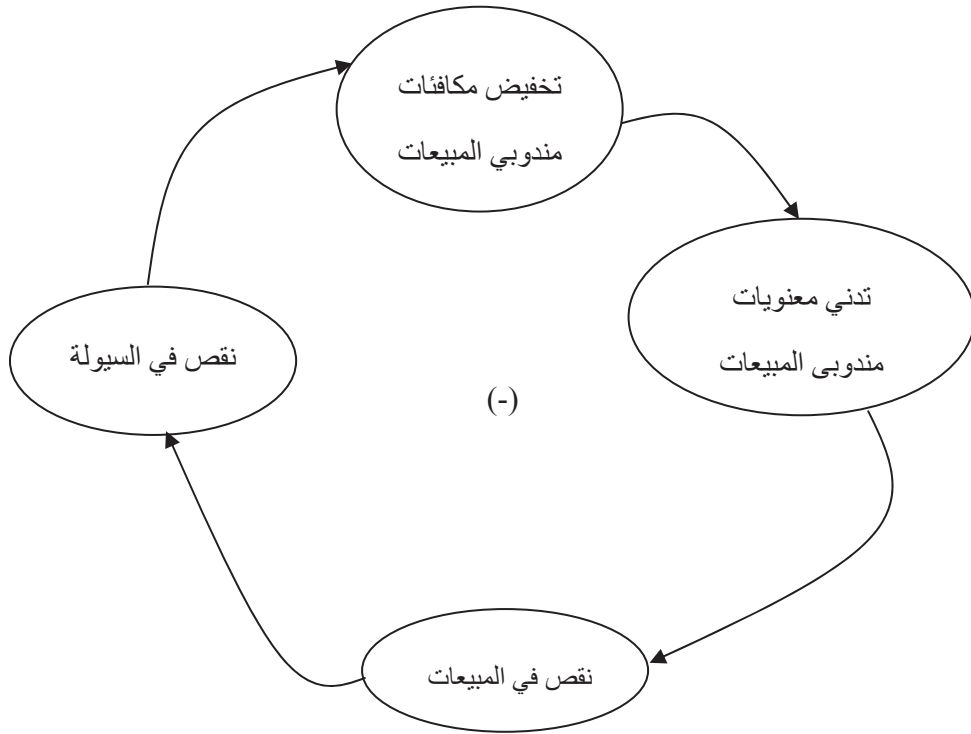
دائرة التعاضم هي ظاهرة تحدث عندما تتراكم وتتسارع نجاحات النظام. مثال ذلك عندما تضرم النار في الحطب (أو البنزين)، فعندما يشتعل أول جزء في هذا الحطب فإنه يقوم بإشعال الأجزاء المحيطة حوله، وكل جزء من هذه الأجزاء سيشعل الأجزاء الأخرى وهكذا. مثال آخر، عندما يقوم زيد ببيع بضاعة مفيدة لجريـر، فيقوم جريـر بإبلاغ أصدقاءه، فيقوم الأصدقاء بالاتصال بزيد وشراء البضاعة، ثم يقوم كل منهم بإبلاغ أصدقاءه، وهكذا.

الأشكال التالية توضح هذه الأمثلة بيانياً.



□ دائرة الانهيار:

وهي تشبه تماماً دائرة التعاضم ولكن بالاتجاه السلبي. أي أنها ظاهرة تحدث عندما تتراكم وتتسارع مطبات وفشل النظام. مثال ذلك هو شركة تشعر بنقص في السيولة فتقوم بتخفيض مكافئات مندوبي المبيعات فتتقصر المعنويات عندهم فيقل البيع فيزداد الضغط على السيولة، وهكذا.



■ قانون التعاضم الأول والثاني والثالث:

قانون التعاضم الأول يقول إنه عندما تبدأ أية دائرة بالتعاضم فإنه يُخلق معها في تلك اللحظة بذرة دائرة الانهيار.

قانون التعاضم الثاني يقول إن الأمر الطبيعي في الأنظمة أن تنتهي دائرة التعاضم إلى الانهيار.

قانون التعاضم الثالث يقول إن الطريقة الوحيدة لتأخير عملية الانهيار هي عمل تحكم داخلي يحيط بدائرة الانهيار.

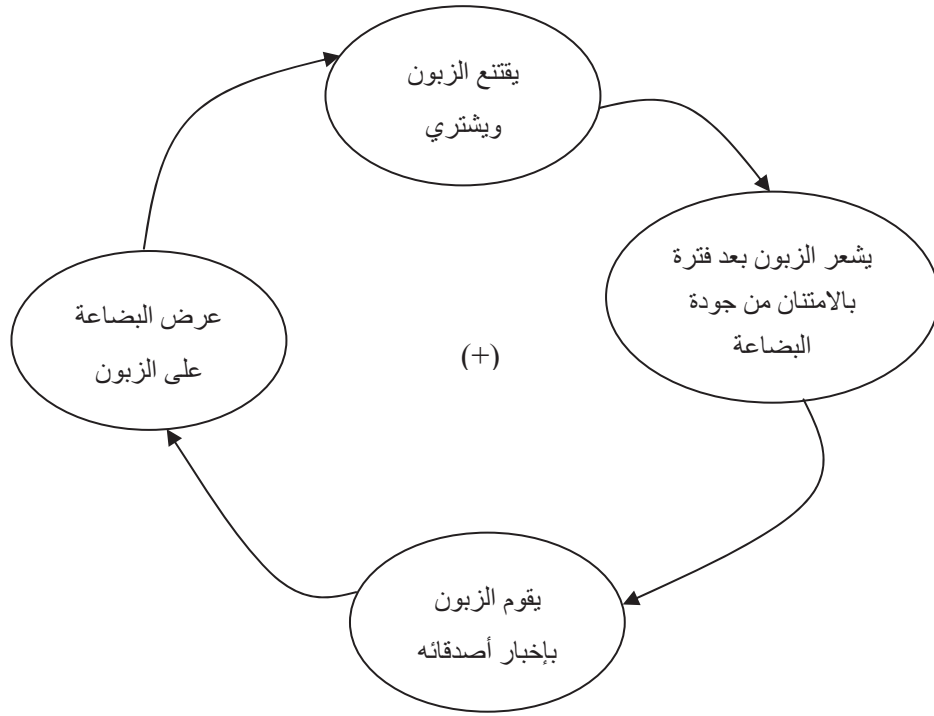
كمثال للقانون الأول والثاني ففي اللحظة التي يشتعل فيها الحطب فإن دائرة التعاضم قد بدأت ولكنه في نفس اللحظة فإن بذرة الانهيار قد خُلقت. وبذرة الانهيار هي نقصان الوقود اللازم للاحتراق. وضمن هذا النظام فإن دائرة التعاضم سوف تتسارع إلى مرحلة ثم تتباطأ إلى أن تصل إلى القمة ثم تبدأ عملية الانهيار حتى تخمد النار.

ومثال على القانون الثالث فإن السيارة إذا دُفعت فإنها تتحرك ثم تقف لمقاومة احتكاك الهواء والشارع. والطريقة التي يمكن فيها أن تسير السيارة بسرعة ثابتة هي أن تضغط على دواسة البنزين لتعطي للسيارة قوة توازن بها مقاومة الاحتكاك. وطبعاً فإن هذا يؤخر عملية التوقف، ولكن السيارة ستقف حتماً بعد فترة للترود بالوقود.

■ حالة التوازن الديناميكي:

هي الحالة التي تتوازن فيها دائرة التعاضم مع دائرة الانهيار. وفي هذه الحالة فإن النظام لا يصعد ولا ينزل وإنما يكون في حالة جمود. وفي هذه الحالة كذلك يكون قد وصل إلى النقطة الأعلى في نجاحه.

لندرس المثال السابق ذكره في دائرة التعاضم:



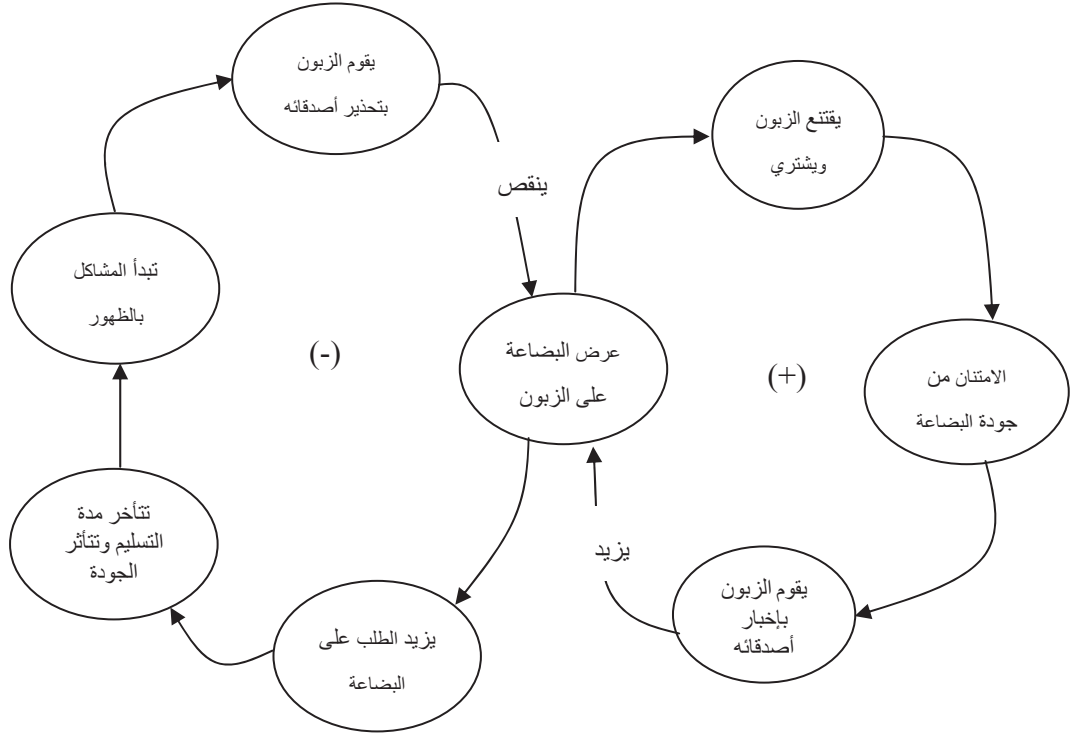
ولنقل أن البضاعة هي جهاز منزلي يتم تصنيعه محلياً. وأن كلفة الجهاز هي ٥٠٠ درهم، وأنه بحاجة إلى عامل واحد ويومين لتصنيعه. وأن سعر بيع الجهاز هو ١٠٠٠ درهم.

إن بداية دائرة التعاضم هذه سيخلق معها بذرة الانهيار وهي:

١. يزداد الطلب في شراء البضاعة.
٢. بسبب زيادة الطلب فإن الشركة ستضطر إلى تأخير تسليم الجهاز، وستضطر كذلك إلى الاستعانة وبسرعة بعمال آخرين لتصنيع المنتج. وبالتالي تنقص جودة الجهاز وتنقص جودة الخدمة (تسليم الجهاز).
٣. تبدأ مشاكل الجهاز بالظهور وتبدأ شكاوي الزبائن.
٤. يقوم بعض الزبائن بإلغاء طلبات شرائهم كما يقوم البعض الآخر بإرجاع الجهاز والمطالبة بالثمن.

٥. يقوم الزبائن بتحذير أصدقائهم مما يؤدي هذا إلى نقصان طلبات الشراء.

إن تفاعل دائرة التعاضم ودائرة الانهيار ستكون كالتالي:



ويمكن السيطرة على دائرة الانهيار هذه، فغالب الظن أن تستطيع الإدارة أن تتنبه لدائرة الانهيار وأن تبدأ بالتحكم والتنظيم لأعمالها، وفي هذه الحالة فإن الشركة تكون إما في حالة صعود حسابي (أي أن الشركة تتقدم عاماً بعد عام بنسبة حسابية وليست تعاضمية) أو تكون الشركة في حالة توازن (أي أن يكون ربح الشركة ثابت ولكن دون نمو).

ولكن ضمن قانون التأخير فإنه سيكون هناك وقت بين الانتباه لدائرة الانهيار وبين الإحاطة بدائرة الانهيار. وهذا الوقت يعتمد على الظروف وعلى مهارة الإدارة.

المشكلة الكبرى هي عندما تتضافر مجموعة من دوائر الانهيار معاً وفي وقت واحد. فبالنسبة للمثال السابق فيمكن توقع دائرة انهيار أخرى في النظام. ويمكن وضع دوائر التعاضم والانهيار للمثال السابق كما يلي:

| دوائر النهيار | دوائر التعاضم |
|--|---|
| المزيد من الطلب أدى إلى نقصان في الجودة بسبب عدم توفر الوقت والعمالة الكافية الماهرة لتغطية الطلب. | الكلمة الحسنة من الزبون أدت إلى مزيد من الطلب |
| المزيد من الطلب أدى إلى نقص في السيولة بسبب أن شراء المواد المتعلقة بالجهاز يتم قبل التحصيل. | |

ويغلب على ظن المؤلف أن تضافر ثلاث دوائر انهيار أو أكثر في وقت واحد في مؤسسة صغيرة كفييل بانهارها. حسب قانون التأخير وقانون التشابك التالي ذكره.

■ قانون التشابك:

التشابك هنا هو حجم المدخلات التي يجب على النظام أن يتعامل معها، وحجم المخرجات المطلوبة من النظام، وحجم أنظمة التحكم الداخلية للنظام. وبالطبع فإن حجم التشابك في مؤسسة صغيرة أقل منه في مؤسسة ذات فروع عدة.

هذا القانون لاحظته مبرمجو الكمبيوتر ولكنه ينطبق على أي نظام. فقد لاحظ مبرمجو الكمبيوتر أنه كلما زادت تشابكات النظام زيادة حسابية فإن الإدارة بحاجة لزيادة قوتها العقلية زيادة تعاضمية.

كمثال على ذلك: إذا احتاجت المؤسسة لبرنامج كمبيوتر لها، وتم تصميم البرنامج عن طريق شخصين في عشرة أيام، ثم بعد ذلك زادت تشابكات المؤسسة إلى الضعف فإن تصميم برنامج الكمبيوتر اللازم للمؤسسة قد يحتاج إما إلى ثمانية أشخاص في عشرة أيام أو لشخصين لينجزوه في أربعين يوماً.

هذا القانون تراه واضحاً عندما تزداد نشاطات الشركة أو يزداد فروعها. وعند هذه الحالة فإن الشركة بحاجة إلى قوة عقلية متضاعفة عن ذي قبل. وقد تكون تلك القوة اللازمة هي نظام إداري مناسب، أو زيادة في عدد الموظفين، أو زيادة في المهارات الإدارية، الخ.

رجوعاً إلى دوائر الانهيار، فإن تضافر ثلاث دوائر انهيار أو أكثر في مؤسسة صغيرة فإن قانون التأخير وقانون التشابك قد يكونان أكبر من قدرة المؤسسة الصغيرة على الصمود فيكون الانهيار الكامل.

إن هذا الموضوع في غاية الأهمية لأنه السر في نجاح الفخاخ السياسية. فالمهارة السياسية للدولة هو في كيفية خلق دوائر التعاضم عندها مع الإحاطة بدوائر الانهيار، وكيفية خلق وحث دوائر الانهيار عند الدولة العدو.

فبالخلافة العثمانية كانت في دوائر انهيار متعددة وقد استطاع السلطان عبد الحميد تأخير الانهيار ولكنه لم يستطع أن يعالج دوائر الانهيار ذاتها، ثم قام الاتحاد والترقي بالانقلاب على السلطان عبد الحميد. ولم يكن الاتحاد والترقي السبب في انهيار الدولة العثمانية إنما كان الأداة لهذا الانهيار، بمعنى لو أن السلطان عبد

الحميد قد انتبه لمؤامرة الاتحاد والترقي فسوف يأتي غيرهم لتحقيق دوائر الانهيار. أما الإنجليز فما فعلوه هو تسريع دوائر الانهيار كي تتحقق قبل قدرة الخلافة على الانتباه لها ومعالجتها.

ومثال آخر هو الاتحاد السوفييتي. ويقول البعض إن سبب انهيار الاتحاد هو أن جورباتشوف كان عميلاً للمخابرات الأمريكية، وهذا مستبعد تماماً فلم تكن المخابرات السوفييتية ولم يكن الجيش السوفييتي بهذا الغباء والسذاجة ليتمكن عميل من السيطرة والبقاء في الحكم. كل ما حدث هو أن دوائر الانهيار كانت تدور في الاتحاد السوفييتي، وعندما جاء جورباتشوف فإنه جاء بأفكار جديدة وفلسفات منطقية ولكن الطريقة التي طبق فيها هذه الأفكار قد عجلت من دوائر الانهيار وكانت أقوى وأسرع من قدرته على الصمود. وكل ما فعلته المخابرات الأمريكية هو تشتيت انتباه السوفييت وتبديد قوتهم العقلية، وخلق وحث دوائر انهيار أخرى في جسم الاتحاد.

■ مهارة القفز فوق عتبات التوازن:

ضمن قوانين التعاضم الثلاثة فإن أي نظام سينتهي إلى الانهيار حتى وإن كانت هناك إدارة جيدة. فأى نظام جيد سيبدأ بالتعاضم ثم يتباطأ التعاضم بنسبة تعتمد على مهارة الإدارة ولكن سيأتي الوقت الذي يصل فيه النظام إلى حالة التوازن، ثم تبدأ عملية الانهيار.

والسؤال هنا هو كيف يمكن أن نجعل حركة التعاضم مستمرة وكيف يمكن أن نمنع تماماً حركة الانهيار؟

وكان الجواب في الأدبيات الإدارية هو مهارة القفز. والفكرة هي أنه في اللحظة التي تتباطأ دائرة التعاضم فإنك تعد العدة لخلق دائرة تعاضم أخرى.

وهكذا تبدأ الكرة مرة أخرى، وكل ما تفعله هو أنك تقفز من دائرة وصلت إلى حالة التوازن إلى دائرة أخرى بدأت من جديد.

كمثال على ذلك هو أنه إذا كانت كلفة صناعة الجهاز هي ٥٠٠ درهم، وبعد البحث والتجربة تم التوصل إلى طريقة مبتكرة وخلاقة تجعل كلفة الصناعة هي ٥٠ درهماً، فأنت في هذه الحالة قد قفزت إلى دائرة تعاضم أخرى.

الطريقة الأساسية لعمل سياسة ناجحة للقفز هي في خلق إدارة متكاملة ومستقلة للبحث والتطوير. وبغير هذه الإدارة فقدرة القفز تكون عشوائية وغير مستقرة.

■ نقاط الحث:

هي ظاهرة تم الانتباه لها بعد بحث قام به أحد علماء المناخ (Edward Lorenz)، إذ وجد أن قوانين الرياح في غاية التعقيد، وأنه من الصعب جداً الإحاطة بها، وأنه وجد أن أسباب صغيرة تحدث في منطقة قد تؤثر على حركة الرياح لمنطقة مختلفة تماماً، فكانت الكلمة المشهورة: هل يمكن لفراشة تصفق في اليابان أن تسبب إعصاراً في أمريكا.

كان هذا انتباهاً لعلماء الأنظمة فقد وجدوا أن هذه الظاهرة موجودة في كثير من الأنظمة، فهناك نقاط في النظام إذا تم حثها ولو بقوة صغيرة فإنها قد تكون سبباً لنشوء دوائر التعاضم أو الانهيار.

مثال ذلك هو الحطب، فإذا وضعت قليلاً من البنزين في أحد أطرافه فإن شعلة صغيرة كافية أن تشعل الحطب كله.

وهذا أيضاً وارد في الأنظمة الإنسانية، فهناك أحداث صغيرة حدثت في التاريخ كانت هي السبب في حث دوائر التعاضم أو الانهيار في النظام. فمثلاً قيام جاليليو

بوضع المنهج العلمي في البحث والتحليل كان أحد الأسباب الرئيسية في سرعة التطور العلمي عند الغرب. وكذلك فإن اغتيال ولي عهد النمسا هو الحدث الذي أشعل الحرب العالمية الأولى. وكان قرار القيادة السوفيتية بالوفاق مع أمريكا سبباً في حث دوائر الانهيار في الاتحاد السوفيتي.

قد يظهر بعض التعارض بين هذا الموضوع وسعة الصدر. فكما تم الحديث سابقاً، فإن سعة الصدر تتعلق بالاهتمام بالأمر الحيوي والتسامح بالأمر الفرعية. ولكن فكرة نقاط الحث تفيد أنه يمكن لأمر وأحداث فرعية أن تحث دوائر الانهيار. السؤال هنا: كيف يمكن أخذ الموضوعين بالتوازي؟ أي كيف يمكن أخذ سعة الصدر وفي الوقت نفسه عمل نظام كفيل بإحاطة دائرة الانهيار التي قد تسببها أحداث فرعية؟

الحل يكمن في برودة الأعصاب للقيادة والذكاء الجماعي للمجتمع. فبرودة أعصاب القيادة كفيل لها بالانتباه لدوائر الانهيار الحقيقية، كما أن الذكاء الجماعي للمجتمع كفيل له بالمرونة اللازمة للإحاطة بدوائر الانهيار قبل تفاقمها. وهذا يرجعنا مجدداً إلى ضرورة تقوية الذكاء الجماعي في الأجهزة الإدارية بشكل خاص والأمة بشكل عام.

إن ديناميكية المجتمع في غاية التعقيد ولهذا كانت الضرورة لتعلم مهارات التحليل الديناميكي، لأن هذه المهارات هي التي تستطيع تنيهاً إلى ديناميكيات المجتمع ودوائره المختلفة. أما من يتعامل مع ديناميكية المجتمع بسذاجة فهو كمن يبتعد عن المدينة ويبتعد ويبتعد ولا يدري أنه قد بدأ يقترب منها ولكن من الجهة الأخرى، أو كرجل لا يدرك ديناميكية البندول وضرب كرتها فيها ولا حظها بتباعد واطمأن وإذا بالكرة جاءت إليه وضربت رأسه.

وإن هناك ديناميكية هي أشد تشابكاً من ديناميكية المجتمع، وهي ديناميكية الإسلام:

قال رسول الله ﷺ: «عليكم هديا قاصدا فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه» رواه أحمد في باقي مسند الأنصار. وقال ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» رواه أحمد في باقي مسند المكثرين.

إن نظام الإسلام يتعلق بنظام الفرد والمجتمع والدولة وهو بهذا يجمع على الأقل ثلاث ديناميكيات. وللتشابك الشديد في ديناميكية الإسلام فإن التلاعب أو التعامل مع الإسلام بسداجة هو أمر فيه كل الخطورة، فمن يتلاعب مع ديناميكية متشابكة أو يتعامل معها بنظرة الهاوي فهو لن يدري من أين تأتيه الضربات منها. وقد تلاحظ أن القرآن كان شديد الانتقاد للكفر، وكبائر الإثم والفواحش (كالزنا، والربا، الخ). ولكن هناك أمر آخر كان شديد الانتقاد له وهو تحريم ما أحل الله. قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧-المائدة)

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا
أَضْطَرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾
(١١٩-الأنعام)

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً
عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠-الأنعام)

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ
لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠-الأنعام)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْرًا عَلَىٰ اللَّهِ تَفَتَرُونَ ﴾ (٥٩- يونس)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٥- النحل)

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمْ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١١٦- النحل)

إن العزم الذاتي هو جزء ملاحظ في طبيعة الإنسان. والعزم الذاتي هو رغبة الإنسان بتوسعة مفاهيمه وبصورة قد تكون آلية. وهذا العزم الذاتي جيد في الفلسفات والعلوم الدنيوية ولكنه غاية في الخطورة في الأحكام الإسلامية، فمثلاً عندما حرم الله الزنا فإن العزم الذاتي لبعض الناس قد أوحى لهم أنه من الأفضل الامتناع عن النساء، كما أن فرض الصلاة وسن النوافل قد أوحى للبعض بأن الصلاة ليل نهار هو أفضل الأعمال، كما أن تحريم الذهب قد أوحى لبعض الناس أن الألباس ومادة البلاتين حرام لأنها أعلى من الذهب.

النقطة هنا أنه يجب الحذر جداً من تحريم أمر أو فرض أمر ليس له أدلة واضحة وإلا فهذا تلاعب بديناميكية الإسلام، وكأي ديناميكية متشابكة فإن ردة فعلها تكون قاسية وغير متوقعة.

وقد تكون إحدى سخریات القدر التي سيسجلها التاريخ أن تلاعب الغرب ومكرهم مع ديناميكية الإسلام هو أحد الأسباب الرئيسية لنهضة المسلمين وصعودهم. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَؤًا لِّلَّهِ خَيْرٌ مِّنْ الْمُكْرِيْنَ ﴾ (٥٤- آل عمران).

إن أكثر الغرب إدراكاً لقوة الإسلام هم الإنجليز. ولكن لم يكن إدراكهم كاملاً

لديناميكيته. فقد استطاع الإنجليز وبمكر شديد أن يحطموا الخلافة العثمانية. ولم يدرك الإنجليز أن الخلافة الراشدة الثانية لا يمكن لها أن تقوم على أساسات الملك العاض. وأن قيامتها لا تكون إلا بتحطيم أساسات الملك العاض تحطيماً تاماً: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» رواه أحمد في مسند الكوفيين عن حديث حذيفة بن اليمان.

وأوهم الغرب المسلمين بأوهام القومية والوطنية حتى أوصلوهم إلى عنان السماء. ولم يدرك الغرب أن من يصل إلى عنان السماء بأعمدة واهية سيسقط. ولا يدرك الغرب أن المسلمين إذا سقطوا استيقظوا.

ووضع الإنجليز اليهود في فلسطين حرساً لهم. ولم يدرك الإنجليز أن اليهود شعب أحمق، وأن حماقتهم هي التي أيقظت المسلمين من سبات طويل. واحتل اليهود القدس، وكان ذلك اليوم عيداً لهم. ولم يدرك أحد منهم أن هذه الصدمة كانت كافية لبعث الحياة في العالم الإسلامي. ولم يدرك أحد منهم أن المعركة الحقيقية قد بدأت ذلك اليوم.

وعندما انتبه الغرب إلى بدايات وعي المسلمين انهالوا عليه بالإحباطات حتى يئس. ولم يدرك الغرب أن اليأس إذا زاد حده في الصدور انقلب غضباً لا يعرف غفراناً ولا نسياناً.

وبدأ الاستيقاظ في العالم الإسلامي بطيئاً ثم تسارعت إليه الحياة وتسارعت أكثر، فما من يوم مر بعد يوم النكسة إلا والمسلمين أفضل حال من اليوم الذي سبقه إيماناً وعبادة وعلماً ومهارة ووعياً.

وتسارعت الأمور في الثمانينات وتسارعت أكثر في التسعينات وفي بداية هذا القرن أصبح الحديث علناً عن خطر المسلمين وعن ضرورة الإحاطة بهم. لا أقول أنني أعرف المستقبل، ولكنني أعرف كيف أقرأ الماضي وأعرف رسم البيان لأحداثه، فإذا استمر هذا التسارع في زخمه فإن العالم مقبل على انعطافات حادة في السنوات القليلة القادمة ترفع بإذن الله المستضعفين في الأرض وتنزل بإذن الله المستكبرين فيها.